في قلب نجد والحجاز

لمؤلفه: محمد شفيق أفندي مصطفى

هنـاك الكثير من الرحلات للأماكن المقدسـة: مكـة والمدينة وما حولهما، هذه واحدة منها وقعت سـنة ١٩٢٦ م، وهي بمثابة وثيقة سياسية واجتماعيـة ودينية وجغرافية، راحت تـؤرخ جزءاً من تاريخ منطقتي نجد والحجاز بما يحمله من نظام حكم وحوادث وتقاليد وأعراف وشـعائر حج ...

❁ ❁ ❁

مقدمة

وعليه نتكل وبه نستعين وهو خير معين وبعد:

فلسـت أنكر أنني كنت إلى مـا قبل زيارة حضرة صاحب السـمو الملكي الأمير سعود ـ ولي عهد نجد والحجاز ـ لمصر في صيف العام الماضي

أجهل كل شـيء عن أحوال البلاد العربية التي ندين وإياها بدين الإسلام الحنيف، أللهم إلا القدر الذي يعرفه سـواد المتعلمين من أبناء مصر وغير أبنائها من الناحيتين التاريخية والجغرافية، وحسـبي أنه لم يكتب واحد من رحالـة العـرب والإفرنج في الطور الحاضر شـيئاً يعتد بـه عنها بعد ذلك التطور السياسـي... و عقب إدمـاج القطرين العربيين ـ نجد والحجاز ـ في حكم واحد، وتحت سلطان ملك واحد...

وإذا قلت هذا في شـأن نجد والحجاز وحدهما دون الجزء المتمم لشبه الجزيـرة العربيـة، وأعني به اليمن، فإنما قد قيض لأهل الاطلاع وعشـاق التعرف بأحوال الأمم من قام بارتياد هذا القطر من أبناء مصر في السنوات الأخيرة ونشر ما كان مجهولاً عنه.

فقد قام حضرة صاحب السـعادة العالم المحقق أحمد زكي باشا برحلة في العـام الماضي، فقصّ علينا ما شـهده من أحـوال اليمن على صفحات الأهرام الغرّاء، مما لم يتعرض له أحد قبله من حيث الإفاضة في سائر نواحي تلك البلاد الاجتماعية والسياسـية؛ ولعل النهضـة العربية التي شملت كل شبه جزيرة العرب واشـتراك مصر بل قيامها بقسط غير قليل بجمع كلمة المسلمين سـواء أكان باهتمامها الدائم بشؤون الأراضي المقدسة والخلافة الإسـلامية، أم بنشـر معالم الثقافة العربية وإعلاء شـأنها هو الذي حرك همـم المفكرين والباحثين لاسـتجلاء حقائق الحال في تلـك البلاد والعمل على تقريب قلوب الشـعوب الإسلامية نحو جاراتها، وتوطيد علائق الودّ والصفاء بينها.

و لا أنسـى ما أبداه سمو الأمير سـعود أثناء زيارته مصر من هذه الرغبة السـامية ودعوته المفكرين لزيارة بلاده واستطلاع شؤونها ونشر

في قلب نجد والحجاز

الحقائق المجردة عنها...

من أجل ذلك، ولأني منذ نعومة أظفاري أشعر بميل خاص إلى احتذاء أثر المستطلعين لأحوال الأمم والبلدان، وكنت ولا أزال ممن يؤمنون بالتطور في كل شيء حتى إني كنت أرقب عن كثب خلال زيارة الأمير النجدي وحاشيته الكثيرة العدد مصر ما تحدثه هذه الزيارة لمصر المتمدنية العظيمة التحضر في نفوسهم من الأثر والتطور النسبي في حركاتهم وسكناتهم ومقدار قابليتهم واستعدادهم للأخذ بأسباب الحضارة، فكنت ألمس أشياء كثيرة مما كنت أومن به من هذه الناحية الحساسة، سواء أكان في اجتماعاتهم بزائريهم من المصريين والأجانب، أو معاملاتهم الخاصة، وفي خلال مشاهداتهم لعظمة الحضارة المصرية وأسباب العمران الاجتماعي، وما اقتناه سموّ أميرهم من نفائس المصنوعات وبدائع الأشياء وتقديره لكل ما كان يقع تحت ناظريه مما كان يعد في نظره جديداً غريباً.

... كان كل ما تقدم من الأسباب المباشرة التي دفعتني للقيام بهذه الرحلة الشاقة الطويلة، وحسبي أنني قصدتها لوجه العلم والاطلاع، فقد سلكت طريقاً لم يطرقها سواي حتى الآن من الأجانب عن تلك البلاد، فتم لي ما أردته من حيث الاستطلاع الصحيح وإصابة الهدف المقصود.

وإني لمدين بشيء كثير من الفضل في نجاح هذه الرحلة إلى تلك الخلال العربية الكريمة التي أبداها لي زعماء قبائل نجد عن طيبة خاطر وإلى استتباب الأمن في تلك الربوع، وأخيراً، بل وأولاً وآخراً إلى رعاية حضرة

صاحب الجلالة الملك عبد العزيز التي شملتني قبل أن يعلم بأمر رحلتي، حتى بلغت «الرياض» أثر عودة جلالته إليها من الحجاز.

محمد شفيق

تمهيد

دفعني الميل لاستطلاع أحوال شبه جزيرة العرب بعد ذلك التطور الذي شـمل هذه البلاد من أدنـى أطرافها إلى أقصاها إلى القيام برحلة طويلة شـاقة بدأتها بالسفر من القاهرة إلى فلسـطين، ومنها إلى نجد، فالأراضـي الحجازية، مخترقاً قلب الصحـراء على ظهور الإبل، ولا بد لي قبل أن أصل إلى وصف أول بلدة وصلت إليها في أرض نجد وهي «قريات الملح» يجمل بي أن أصف للقراء كيف وصلت وكيف شددت الرحـال، وهو وصـف يثير في النفس ذكريات تاريخية من سـير أهل يعرب وملوك البوادي.

لـم يكن لي عهد بركـوب متون الصحراء ولا أعرف شـيئاً عن وسائل الانتقال والمعيشة في تلك القفار.

وقد بدأت الرحلة في الصحراء بأن استأجرت سيارة قامت بي من عمان ـ عاصمة شرق الأردن ـ قطعت في قلب الصحراء زهاء أربعمائة كيلومتر قضت في قطعها يوماً كاملاً، لم أشـهد في الطريق أثناءه سوى أرض قاحلة لا زرع فيها ولا ضرع، أللهم إلا قوافل من الإبل تسـير من هنا وهناك، وقد قصّ عليّ سـائق السيارة أنّ هذا الطريق كان قبل الآن من أخطر الطرق على السـابلة، ولكن الخفارة الجوية المستمرة قطعت دابـر اللصوص وقطاع الطريق، أللهم إلا مـا تأتيه بعض القبائل كقبيلة الحويطات من الغزوات وأعمال السلب والنهب.

في قريات الملح:

وما كدت أصل إلى «قريات الملح» وهي أول بلد يدخل في منطقة نفوذ ابن السعود وأبدي رغبتي لبعض زعماء القبائل لزيارة عاصمة نجد حتى أسرع إلى إعداد قافلة مؤلفة من خمسة جمال امتطيت أحدها، وكان ركاب الأربعة الأخرى بمثابة خدم خاص، وتصادف أن كانت هناك قافلة كبرى قوامها خمسون جملاً، ركابها يحملون شتى أنواع السلع والبضائع، آتون بها من أسواق الشام يريدون تصريفها في قلب نجد، وعلمت أنّ هذه الرحلة تستغرق من «قريات الملح» إلى «الجوف» تسعة أيام، ومن «الجوف» إلى «حائل» عشرة أيام، ومن هذه إلى «بريده» ثمانية أيام، ومن هذه الأخيرة إلى «الرياض» عاصمة نجد ثمانية أيام أخرى، فتكون مجموع أيام هذه الرحلة في أرض نجد فقط خمسة وثلاثين يوماً، وهي مدة إذا أضيف إليها ما يقضيه المسافر للراحة في الطريق بما لا يقل عن خمسة وعشرين يوماً، فتكون جملتها شهرين كاملين، يضاف إليها مدة سبعة عشر يوماً من «الرياض» إلى «مكة المكرمة» عدا ما قضيناه هناك لزيارة الحرم الشريف وغيره، فيمكن للقارئ قبل المسافر أن يتصور مشقتها على نفسه، لا سيما إذا كان حضرياً لم يسبق له في حياته أن أقدم على مثل تلك الرحلة الشاقة.

وكنت قد استعددت لها فابتعت ثياباً بدوية، وساعد طول زمن هذا السفر «لحيتي» فطالت، فكان طولها أمراً محتوماً على كل مسلم يدخل أرض نجد، على أنّ رأسي لم تعدم موسى من هاتيك المواسي النجدية التي كانت عجائزنا في سالف الزمان يحلقن بها «الملوخية» فكنت أحتمل لحيتي المرسلة وثقلها وغضاضة تلك الموسى مغتبطاً

رجاء وصولي إلى قلب الصحراء، ولولا بقية صبر في نفسي ما استطعت أن أحتمل انعدام وسائل النظافة، و وقاية الجسم من أذى الحشرات اللاذعة، فالصابون لا يجده الإنسان في تلك البلاد إلا بصعوبة زائدة وبسعر مرتفع جداً، وقلما يخلع أحدهم ثيابه إلا وهي أطمار بالية وأسمال لم تمسها الماء، وأكثر سكان البادية لا يغسلون أيديهم حتى بعد تناول طعامهم «فصابون العرب لحاهم» كما يقولون هناك.

و «قريات الملح» التي بدأنا السير منها على ظهور الإبل قرية صغيرة تقع على الحدود الفاصلة بين نجد وإمارة شرق الأردن، وعلى

مسيرة يوم ونصف يوم من حدود سوريا من ناحية جبل الدروز، يحكمها أمير نجدي، طبقاً لأحكام الشرع الإسلامي، وعدد سكانها لايزيدون عن ستمائة نسمة، ويعيشون من زراعة القمح وتمر النخل وتربية الإبل والماشية، واستخراج الملح الذي يجففونه في أحواض، ويبيعونه للرحالة في قلب البادية، والضرائب هناك يسمونها الزكاة، فهي تحصل تارة نقداً بحساب سبعة مجيديات على كل ستة إبل، وعن كل عشر نوقٍ مائة وأحد عشر قرشاً مصرياً، ورأسان من الغنم من كل مائة رأس، والسرقة والفاحشة معدومتان قطعاً في تلك البلاد، ويلقبون الحاكم بالأمير.

وقد استقبلني أمير قريات الملح على «مصطبة» كان يجلس عليها بجانبه سيفه وحوله عدد من أخصائه، وبعد أن قُدمت لنا القهوة النجدية طلب إليّ أن أظل في ضيافته أياماً، ولكني اعتذرت لرغبتي بمواصلة السفر، وبعد أن قضيت يوماً دعاني لزيارة قبيلة «بني صخر» في معيته، وهي قبيلة تضرب في خيام من الشعر على مسافة خمسة عشر كيلومتراً من قريات الملح معروفة بشدة البأس وبكثرة الغزوات، وسنأتي على ما يستحق البيان عن هذه القبيلة فيما يلي.

وقبل أن نبرح قريات الملح شاهدنا آثار قصر يسمونه «قصر الصعيدي» لا نسبة إلى صعيد مصر، ولكن لأنه شيد على هضبة رملية ذات صخور سوداء كبيرة يحيط به سور منها، فإذا بلغ رأس هذه الهضبة انكشف أمامه باب من الخشب يؤدي إلى داخله فيرى آثار مقصورات متعددة، وقد اختلف الرواة في تاريخ تشييد هذا القصر، فمن قائل: إنّ قبيلة بني صخر ـ التي يعدونها مصرية الأصل ـ وبني عمومتهم من الدروز قام منها أخوان وسكنا هذه الجهات فبنيا هذا القصر، ولكنهما

اختلفـا بعد ذلك، فنزح أحدهما إلى جبل الدروز، فأصبح منهم درزيّاً، وبقي الآخر في هذا القصر إلى أن مات فاسـتولى عليه أمراء هذه البلاد وسـكنوه مدة طويلة إلى أن عفت آثاره، فتهدمـت أركانه، وأصبحت أطلالاً دارسة، ولم يبق منها إلا الاسم.

و «الجوف» على مسيرة تسعة أيام على ظهور الإبل، ومما يستحق الذكر أنّ هذا الطريق على طوله لم يصادفنا فيه سوى ثلاث آبار، أخذنا منهـا حاجتنا من الماء، وكان عجبي عظيماً لتلـك الإبل التي لم تطفئ ظمأها خلال هذه التسـعة الأيام إلا مـرة واحدة، على أنّ رجال القافلة أبلغوني أنها تسـتطيع أن تظل بلا ماء في فصل الشتاء أكثر من خمسة عشر يوماً.

ومن ألطف مـا لا حظته في رفاقي أنهم أثنـاء أداء الصلاة كانوا يراعـون واجب المجاملـة باعتباري مصرياً فيبتهلـون إلى الله بالدعاء لمصر وأهلها وجلالة مليكها المعظـم، فكانت هذه المجاملة في ذاتها تسري عني وعثاء السفر، وتقرب القوم إلى قلبي كثيراً، وتشعرني بعظمة الرابطة الإسلامية التي يدين بها شعوب الإسلام.

ومع أنّ أولئك البدو لا يزالون على سذاجتهم، فهم يدلون بأقوالهم وأفعالهم على فطنة وانتباه إلى ما يصدر منهم، فلا يتخذون من الشؤون السياسـية والمباحث الخاصة برجال دولتهم مثاراً للبحث أو التسـلية، كمـا يفعل غيرهم من أبناء الأمم الشـرقية الأخرى... وتراهم يقصرون أحاديثهم في طوال أسـفارهم على رواية قصص مشـاهير العرب، من بطولة، و كرم، و تمسك بأصول الدين والفضائل.

ومع أنّ الشعر نبت في أرض العرب فإنّ أهل بادية نجد الوسطى تعده حراماً، لأنه تغلب فيه الحماسـة دون ذكر الله، أو الغزل، وهذا ما

يعده العرب نقيصة خلقية تعافها نفوسهم.

وأبلـغ مثال على تطور أخـلاق العرب أننا مررنـا ببقعة تدعى: «حظوظه» تقع على سطح تل رملي في وسط الصحراء ذات تربة طينية لزجة لا يسـتطيع الإنسان السير عليها ولا يمكن أن تقربها أقدام الإبل، ويقول العرب: إنها كانت مكان «مدينة لوط» التي غضب الله على أهلها، كما جاء ذلك فـي الفرقان، ويقولون: إنّ بطن هذه البقعة تحوي كنوزاً من الذهب وغيره من النفائس، ومع ذلك فلم تحدث نفس أفقر أعرابي فـي الوصول إليهـا، أو التطلع إلى ما يحويه جوفها مـن كنوز، باعتبار أنّ أرضها نجسـة وقد غضب الله عليها وعلى كل من كان يعيش فوق أديمها في غابر الزمان...!

في الجوف:

وفي اليوم الثامن وصلنا إلى مكان يسمونه «الفرجية» يحيط به عدة جبال كسـاها البرد، وأحاطت بها الحشائش الخضراء، فبانت للناظرين كأبدع ما تراه العيون في سويسـرا ذات المناظر الطبيعية البهيجة، أضف إليها جمال الصحراء، وسـكونها الرهيـب، وجلالها الخاطف للألباب، وهكـذا مرّ بنا ضحى اليوم التاسـع مرّ النسـيم العليل، فأنسـتنا هاتيك المناظر ماسبقتها خلال الثمانية الأيام من طرق موحشة وصحراء جرداء، ووصلنا إلى بلدة «الجوف»...

و«الجوف» بلدة صغيرة تقع في واد منخفض تحوطها الجبال من

جميع جهاتها، ولعل ذلك أصل تسميتها بالجوف، أي أنها واقعة في جوف الجبال والصحراء، ويكثر فيها النخيل الذي يؤتي تمراً ممتازاً على سواه بلذة طعمه وسرعة هضمه، ويزرع أهلها كذلك القمح والشعير وبعض الخضر وأشجار الفاكهة كالليمون والبطيخ والخوخ والعنب والمشمش، ويشتغلون بالتجارة، وبعض الصناعات كدبغ الجلد ونسيج الصوف الذي تصنع منه العباءات المعروفة باسم: «عباء الجوف» وقد جاء ببعضها إلى هنا سمو الأمير سعود أثناء زيارته مصر، وتروج هناك تجارة الإبل والماشية، ويكثر في صحاريها طير النعام الذي يتخذه الخاصة والأمراء طعاماً لهم، وكذلك تكثر الغزلان والحمار الوحشي ذو الخطوط، الذي نشاهده في مصر بحديقة الحيوانات بالجيزة.

السرقة والزنا معدومان

وقد قدم لي أمير «الجوف» من لحم الغزال والنعام طعاماً على مائدته، فلم أزدرده بشهية لعدم اعتيادي تناوله، ولكنهم يعدونه أفخر اللحوم وأجلها شأناً في إكرام خاصة ضيوفهم.

ولا يفوتني أن أذكر أنّ الأمير عبد الله بن عقيل لم يكن بدوياً قحاً كأكثر أمراء الجزيرة، ولكنه على جانب من العلم والاطلاع غير قليل، وبلاده تحكم طبقاً لأحكام الشرع، على أنّ مما يوجب العجب أنّ جريمتي السرقة والزنا تكادان أن تكونا معدومتين قطعياً في تلك البلاد.

وأذكر أنّ أحدهم حضر إلى مجلس الإمارة أمامنا، وأبلغ أنّ كيساً من البن ضاع منه على مسيرة أربعة أيام من «الجوف» وهو قادم من جهة «حائل» ومضى إلى حال سبيله، وحدث بعد يومين أن حضر رجل كان قد سلك هذا الطريق، فسأله الأمير عما إذا كان قد وجد شيئاً

في الطريق أثناء سفره، فقال: إنه وجد كيساً من البن، فسأله الأمير، ومن أين عرفت أن به بناً؟ فأجابه بأنه جسه من الظاهر بعصاه ثم تركه مكانه، فما كان من الأمير إلا أن أمر بضربه خمسين عصا!

وهنا رأيت أن أسأل الأمير عن سبب إنزال هذا العقاب بالرجل وهو لم يسرق، فأجابني قائلاً: كان يجب عليه أن يرى الكيس ولا يلمسه حتى يأتيه صاحبه فيأخذه!

وقص عليّ الأمير على سبيل التدليل على أمانة أهل نجد وبُعدهم عن اقتراف السرقة مهما بلغ شأنها أن يرى أحدهم الذهب في الطريق،

فلا تمسه يده مهما كان فقيراً معدماً.

وقصر الإمارة هناك يتصل ببناء قديم العهد، بناه الإسرائيليون في أيام عزهم و صولتهم، ويطلق عليه اسم: «قصر مارد» مشيد بالأحجار، وله برج كبير أشبه بقلعة حربية، ويقولون: إنه بُني قبل ميلاد النبي ﷺ بأربعمائة عام.

ويمتاز أهل «الجوف» على شدة فقرهم بحسن وفادة الغريب وإكرام الضيف، وسوادهم من أصحاب الأبدان لا يشكون مرضاً ولا يذكرون علة على شفاههم، والسرّ في ذلك هو جودة مناخ الجوف وطيب مائها وخصوبة أرضها.

وعلى ذكر الزراعة فهم يستخرجون الماء للزراعة بواسطة دلاء من الجلد مشدودة بحبال قد رُبطت أطرافها بأعناق الإبل، فإذا مُلئت الدلاء بالماء وشعرت الإبل بامتلائها نزلت إلى منحدر بجانب البئر، وعندئذ تكون الدلاء قد ارتفعت إلى علو، وأفرغت ما بها من الماء في حوض ذي فتحات متصلة بالأرض المراد ريها، ويسمون طريقة الري هذه «التني».

فشل محاولات استعمارية

وقبل أن نغادر «الجوف» قصّ عليّ الأمير أنّ جماعة من السواح الأمريكان والإنجليز طالما حاولوا ارتياد ما بعد الجوف بحجة الاستطلاعات العلمية والجغرافية، فلم يأذن لهم الملك ابن السعود مخافة أن يكون لهم شأن آخر كهاتيك الشؤون الاستعمارية التي بدأها أمثال هؤلاء في غير بلاد العرب بمثل تلك الأسباب، ثم كانت النتيجة بلاء على أهلها، مثال ذلك أن رجلاً إنجليزياً يدعى مستر «ابشر» ذهب إلى «الجوف» على رأس قافلة من السيارات كلفته أموالاً طائلة بحجة

في قلب نجد والحجاز

إقامة مصنع للفخار من طينة معروفة بصلاحيتها لهذا النوع، فلم يأذن له الملك، وهكذا أصبح معروفاً في بلاد الغرب أن نجداً لن تصلح أرضها لوطء أقدام السياح والعلماء والخبراء والمهندسين الأوروبيين، حتى إنّ أحدهم أكد أنّ في وسعه أن يفتح آباراً للبترول «بالرياض» عاصمة نجد، فرُفض طلبه مع شدة حاجة أهلها إلي البترول وغلاء ثمنه...

و«حائل» تبعد عن الجوف نحو عشرة أيام على ظهور الإبل، وقد بدأنا السير في هذا الطريق ، فإذا بها طريق موحش بلقع، فكنا نسير صاعدين فوق تلال ضيقة رملية تشرف على حزون بعيدة الغور، ثم نهبط منها منحدرين إلى مغاور ومجاهل يشرد عندها اللب وينخلع لها القلب، ذلك لأنه إذا اختل توازن الراكب على الإبل قليلاً أو عثرت أقدام الإبل كان الهلاك محققاً، إذ يسقط في هوة لا نجاة منها، وكانت عيون الماء خلال الستة الأيام الأولى معدومة، ولولا ما نحمله من الماء على ظهور الإبل وما كانت تملأ به أجوافها منه؛ لهلكنا نحن وهي ظمأ، على أننا مع ذلك لم نستطع قط أن نسرف في الماء، فلم نغتسل بقليل ولا بكثير منه.

وما كاد فجر اليوم السابع ينبلج حتى وصلنا بلدة تدعى: «جبه» ذات مبان من طين أبيض يلفت الأنظار، فأخذنا حاجتنا منها بعد أن استرحنا قليلاً، وما كان أكبر دهشتي حين أقبل علينا نفر من أهل تلك البلدة يحتفون بنا ويسألون عني بالاسم؛ وقد علمت أنّ بعض رجال

القافلة التي سبقتنا أنبأهم بوصول مصري متحضر ينوي زيارة أمير الرياض، فكأنهم بذلك عبروا عن سليقة الكرم العربي جملة ونابوا عن أميرهم خاصة.

وفي اليوم التاسع وصلنا إلى قرية تدعى: «قنا» وينطقون الحرف الأول منها بالجيم كما ينطقها أهل مديرية قنا المصرية، وهذه القرية صغيرة جداً لا أثر فيها للأخذ والعطاء، حتى إننا أردنا شراء شاة لطعامنا فلم نجدها، على أنّ ذلك لم يسؤنا كثيراً، فقد وصلنا إلى حائل بعد ظهر اليوم التالي مارين في طريقنا بثلاث قرى أكبرها «أم جلبان» ولا تزيد مبانيها على أربعة بيوت يحيط بكل بيت بعض النخيل...

في حائل:

«حائل» هذه اسم على مسمى، فهي حائل بين بلاد نجد وبين ملحقاتها الشمالية، وتعد بالنسبة إلى غيرها من البلاد التي مررنا بها مدينة عامرة ذات شوارع فسيحة منظمة، وفيها سوق كبيرة تروج فيها تجارة الماشية والإبل.

وهي أقرب بلدان نجد إلى الحجاز، فهي تبعد عن المدينة المنورة بنحو ثمانية أيام فقط، وإلى الشام بنحو خمسة عشر يوماً، وإلى العراق بما يقرب من ذلك، على ظهور الإبل، وهى محطة رحال التجار القادمين من هاتيك الديار والمسافرين إليها.

وتروج فيها تجارة الأرز الذي يُجلب من الهند إليها، وهو بمثابة مادة أولية للغذاء نظير الحنطة في مصر، وتزرع في جوارها مساحات كبيرة من الخضر والفاكهة، ومع كثرة وجود النخيل فإنّ تمره رديء غير مرغوب فيه إلا عند الطبقة الفقيرة جدّاً.

وقد شاهدنا بعض النسوة يبعن الخبز والفاكهة والخضر والدجاج

والبيض في سوقها، وهنّ محجبات بجلابيب سوداء وفوقها جلباب بشكل العباءة، وهنّ في غاية الحشمة والوقار، لا تسمع لهنّ صوتاً، ولا يتحدثن مع السابلة إلا بالقدر اللازم لبيع ما بأيديهن من السلع.

أما القصابون هناك فينحرون الماشية ويقسمونها إلى أربعة أجزاء يسمونها «أوصالاً» فيُباع الجزء منها بمبلغ يتراوح بين العشرة والثلاثة عشر قرشاً، أما أثمان الدجاج فرخيصة جدّاً إذ تباع الدجاجة الكبيرة بثلاثة قروش فقط.

وأهل هذه المدينة يتعاملون بعملة فرنسية يسمونها: «الشوشي» ويسميها بعضهم: الريال، وهي قطعة فضية قيمتها أحد عشر قرشاً تقريباً، أما أجزاؤها فهي «البيشلي» قطعة من عملة تركية، وهي المعروفة بالبيشلك، بخلاف أهل قريات الملح والجوف فإنهم يتعاملون بالمجيدي التركي...

وحائل ذات مناخ معتدل، وفيها عين ماء عذبة شافية من العلل يسمونها: «ماء السماح» لا تقل أهمية عن مياه «فيشي» المعدنية الشهيرة، فهي تذيب الأملاح وتشفي أمراض الكلي بسرعة، وتنقي الدم وتساعد على الهضم بصورة مدهشة.

وأما مياه عيونها الأخرى فلا بأس بها أيضاً، يدلك على ذلك اعتدال صحة سكانها وامتلاء أجسامهم، وانقطاع الأمراض بينهم، وقد كانت حائل فيما مضى عاصمة لملك ابن الرشيد الذي كان أميراً عليها من لدن آل سعود واستقل بها زمناً ثم أعيدت إلى حظيرة آل سعود، مما سنأتي عليه بعد.

وأهل حائل أصلهم من قبيلة «شمر» التي كانت تضرب في البادية، فانقسمت على نفسها ورحل جزء كبير منهم إلى حائل فتحضروا فيها.

وظل الجانب الآخر على حالته، ويشاهد في حائل «الأخوان» الذين يسمونهم: «الحبان» وهم يعرفون بعمائمهم الكبيرة التي يضعونها فوق كوفية حمراء يسمونها: «الغطرة» وهي تختلف أوضاعاً وحجماً، فمن كانت عمامته متوسطة الحجم كان عادياً، أما من ظهرت عمامته أكبر حجماً عرف بأنه شيخ من خاصة الحبان.

وللحبان في بلاد نجد المقام الأكبر والمكان الذي يفوق سواهم من عرب البادية، فهم أصحاب الغزوات المشهورة في حائل والأحساء والحجاز، وكانوا إلى ما قبل بضع سنوات لايعرفون من الدين إلا اسمه...

في بريدة:

مدينة «بريدة» على مسيرة ثمانية أيام في طريق سهلة، وكانت أول قرية صادفناها قرية تدعى: «العدوة» يحيط بها أراضٍ منزرعة بالغلال وجبال شاهقة الارتفاع ذات منظر ساحر، على يمينها أرض رملية يضرب لونها إلى وهج الذهب، تؤلف منظراً يخطف الألباب.

وحدث أثناء سفرنا أن افتقد أحد رجال قافلة تقدمتنا في السفر ناقة له أثناء الليل فأرسلوا بعض رجالهم للبحث عنها، فعادوا وأخبروا بأنهم لم يعثروا عليها، وفي [هذه] الأثناء حضر بدوي وأبلغهم أنه شاهد ناقة في طريقه وأعطى أوصافها، وكانت هي الناقة الضالة، وذكر أنه كان في وسعه أن يقودها معه إليهم، لولا خوفه من أن يُتّهم بسرقتها، فشكره صاحب الناقة، وهكذا جدّ رجال القافلة حتى عثروا عليها قبل أن يصل أمرها إلى ولاة الأمور، فاستخلصت من ذلك ما أيد لي أمانة القوم، وانعدام حوادث السرقة انعداماً باتاً في قلب نجد.

ووصلنا إلي بريدة بعد مسيرة عدة أيام، صادفنا نحو أربع قرى

هي: «الكهفة، والجوارة، ووثال، والشقة» وينزل في ثانيتها بعض الإخوان المتحضريـــن منذ زمن بعيد، وبجوار البلدة الرابعة جبل يســـتخرج منه الملح دون أن يدفع عنه الأهالي ضريبة أو ثمناً...

و «بريدة» هذه تقع في سهل رملي ذات مبانٍ متعددة كحائل تحيط بها المزارع وأشـــجار النخيل، ويمتاز تمرها بقصره وســـمنته، والأهالي هناك يجففونه ويسمونه: «البيبس» وأحسنه ما تنبته نخيل «عنيزة» ومع أنه شديد الحلاوة لذيذ الطعم إلا أنه غير سهل الهضم.

باريس نجد

ويعـدون بريدة عاصمة لسـائر القرى التي تحيـط بها وهي في جملتها تدعى: «القصيم» وأهم مدنها: «عنيزة» وهي التي أسماها الشاعر الأشـهر أمين الريحاني عند زيارته لها «باريس نجد»، ذلك لأنَّ منازلها مؤلفة من ثلاث طبقات، على نسق مباني المدن المتحضرة.

وأهل القصيم ـ ولا سيما سكان بريدة وعنيزة ـ يعدون أغنى أهل نجد جميعاً، وأكثرهم تحضراً، وأنشـطهم حركة، وأعرفهم بأسـاليب التجارة.

ولقـد رأيـت كثيرين منهم في الشـام ومصر يتبادلـون المتاجر فيجلبـون إلـى مصر مثلاً الخيل والإبل والماشـية والجلود والسـمن، ويبتاعون الأقمشـة وشـتى أنواع المصنوعات والسلع، بل منهم من له شـأن تجاري يغبط عليه في أسـواق الهند ومـدن الحجاز، وكان ذلك سـبباً في تطور أخلاقهم وعاداتهم وميلهم إلى الأخذ بأساليب المدنية، وسهولة الطباع، وعدم التعصب لمذهب دون آخر.

زد علـى ذلك أن في وسـع الغريب عن ديارهـم أن يفهم لهجة كلامهم بسـرعة، فإذا أضاف بعضهم غريباً متحضراً أدهشه ما يراه على موائدهـم من أصناف الأطعمة ولوازم المائدة، مما يجعله لا يصدق أنه في قلب نجد.

كمـا أني لاحظت بعضهم يدخن سـراً، وعلى ذكر الدخان الذي يسمونه النجديون: «التيتن».

أقـول: إنه لا يوجد له أثر في نجد، فإذا عُثر عليه عوقب صاحبه كما يعاقب محرز الحشيش والمخدرات السامة في مصر...

إلى الرياض:

مضينا في «بريدة» ثلاثة أيام ثم استأنفنا السفر إلى «الرياض» عاصمة نجد، وللوصول إليها طريقان: طريق «الوادي» وطريق «المستوي» وثانيهما أقصر من الأول، وحدث في الأثناء أن أذيع خبر عودة جلالة الملك عبد العزيز من المدينة المنورة إلى عاصمة نجد للمرة الأولى بعد فتحه الحجاز، فاخترنا طريق المستوي كي نعجل بالوصول إلى الرياض لنشهد حفلات استقباله، وقد قطعنا اليوم الأول في طريق رملي ذي هضاب رملية، ووصلنا إلى قرية تدعى: «أبو شيجر» بعد مسير أربعة أيام ومن هناك علمنا أنّ جلالة الملك وصل في موكب أفخم مؤلف من ست وعشرين سيارة في ذلك اليوم.

ولم أر ما يستحق الذكر خلال هذا الطريق سوى أن أهل القرى هناك يأكلون الجراد، وهم ينتظرون مواسمه كما ينتظر سكان مصر موسم السمان.. وأغرب من ذلك أنهم يتفاءلون بالخير إذا أقبل موسمه بقدر مايتشاءم منه أهل مصر ويتسلح الفلاحون المصريون لمطاردته، ومما يتحدثون عن فوائده من نجد أنه مغذٍّ كالشهد، شافٍ للعلل كالترياق، حتى بلغت بهم شدة الشغف لأكله أن يتخذوا منه قديداً، ولا أدري أهم يقددونه بطريقة التعقيم أم بطريقة أخرى لا تزال غائبة عن معامل برشلونة..

وقد قص عليّ أحد رجال القافلة أن بعض كبار التجار النجديين في مصر لا يزالون على عهدهم بقديد الجراد، يرسل إليهم في أكياس هي عندهم أعز من أكياس الحلوى التي تُهدى في الأفراح.

ومررنا على بلدة: «شجرة» وهي كائنة في وسط إقليم يسمى: «الرس» وهي ذات تجارة متوسطة ويعدونها عاصمة ذلك الإقليم.

ومررنا كذلك على بلـدة تدعى: «البره» إلى أن وصلنا إلى مدينة «الدرعية» بعد مرورنا على أطلال قرية يسمونها: «العُيينة» التي نشأ منها «مسيلمة الكذاب» الذي ادعى النبوة في عهد النبي ﷺ.

و «الدرعية» مدينة أثرية كانت عاصمة لنجد، وفيها نشـأت أسرة آل سـعود، ومنها ظهرت الدعوة الوهابيـة، وحولها دارت الحرب بين جنود المغفور له إبراهيم باشـا ـ والي مصر ـ وبين الوهابيين، ولا تزال آثار مدافعه بادية للأنظار في خرائب مدينة الدرعية القديمة.

عاصمة نجد تستقبل ملكها

بلغنا «الرياض» في صباح اليوم الثامن، وكانت المدينة قد لبست زخرفها وانتشرت معالم الابتهاج بوصول مليكها إليها بعد فتحه الحجاز، وقد امتلأت بالوفود من أقصى أنحاء نجد للترحيب بمقدمه.

تعطفات ملكية

وكان جلالة الملك قد علم بقدومنا فأرسـل مندوباً عنه لاستقبالنا بباب المدينة، وسار بنا إلى قصر جلالته، وقد دخلنا عليه لأول مرة، فإذا به يستقبلنا استقبالاً ودياً، كأننا كنا على صداقة قديمة بيننا وبين جلالته، ولما علم بغرضنا من رحلتنا سُـر وأظهر عطفه على رغبتنا في استطلاع أحوال شـبه الجزيرة العربية، وأمر بإعداد منزل خاص لإقامتنا، وطلب إلينا أن نحظى بمجلسه في أي وقت شئنا، ومِن ثَمّ أخذنا نتعرف بكبار ذوي الشـأن في عاصمة نجد، لنسـتطلع ما جلّ ودق من شؤون البلاد جملة وتفصيلاً.

وبدأنا نجمع المعلومات الدقيقة عما كان قبل إعلان الحرب على الهاشميين، وفي خلال تلك الحرب، وما جرى بعد ذلك من التطورات حتى الآن، مما سنأتي عليه.

في قلب نجد والحجاز

وصف العاصمة النجدية، القصور الملكية:

«الرياض» تعد أكبر مدن نجد وأعظمها شـأناً باعتبار أنها عاصمة الديار النجدية، ذات مبانٍ متعددة، بينها عدة عمارات كبيرة أكثر شـبهاً بمنـازل أعيان أقاليـم القطر المصري، أما قصور أمراء الأسـرة المالكة فتمتاز عن سائر مباني الرياض باتساعها وبهاء شكلها.

ويحيط بالمدينة سور فخم له عدة أبواب كثيرة على مثال أبواب المدن الشرقية في سالف الزمان، وهي تقفل عند اللزوم.

وتحيط بالعاصمة المزارع وأشجار النخيل، وهناك مزرعة خاصة بأمراء البيت المالك، لم يستوقف نظري فيها سوى بعض شجيرات من الورد وأخرى من القطن، ولعل في زرع شـجيرات القطن معنىً خاصاً يجول فـي نفس جلالة ابن السـعود هو ذات المعنـى الذي جال في نفس المغفور له محمد علي باشـا ـ محي مصر ـ يوم أمر بزرع بعض شـجيرات من القطن للمـرة الأولى في مصر في حديقـة قصره، فلما أعجبه شكلها وسـره تفتح لويزات القطن وظهور خيوطها البيضاء وما كان منه بعد ذلك حيث أمر بتعميم زراعته في سـائر بلاد القطر، فكان ذلك سـبباً في رخاء البلاد وسـعادة العباد، على أنّ تحقيق هذه الأمنية السـعودية قد يتم على مـدى الزمان إذا أُعـدت الأراضي التي تصلح للزراعة ومُهدت لها وسائل الري.

وفي الرياض عدة مدارس دينية أشـبه بكتاتيب المساجد عندنا،

يدخلها الصبيان فيتعلمون مبادئ القراءة والكتابة ويحفظون القرآن عن ظهر قلب، ولا يتبحر في العلوم الدينية إلا النادر من الذين يريدون الانقطاع لخدمة العلم والدين فيُلقنون تفسير القرآن وأحكام الشرع، ومن هؤلاء يتخرج أئمة المساجد ووعاظها.

وفي الرياض ستة مساجد خالية من مظاهر الزخرف والفرش، بغير قباب، وأغلبها بغير سقف، وتقام صلاة الجماعة في أيام الجمع والعيدين في مسجد واحد، ويبلغ اهتمام بعضهم بسماع الخطبة المنبرية أن يبكر في الحضور إلى المسجد ليأخذ له مكاناً فيه خشية الزحام، فإذا طرأ عليه ما يستوجب مبارحته المسجد وضع عصاه أو أي شيء آخر في مكانه ومضى إلى سبيله حتى إذا أُذن للصلاة عاد إلى مكانه دون أن يرى من يجرؤ على احتلاله.

ولا تستعمل القناديل في إضاءة المساجد ليلاً، فيكتفون ببعض الشموع.

ومن أعجب ما لاحظته عند صلاة الفجر بعد الانتهاء من الصلاة أن ينادي المؤذن بأسماء الذين اعتادوا الصلاة في مسجده، فإذا تخلف أحدهم دون عذر شرعي عوقب للمرة الأولى بمصادرة «كوفيته»، فإذا عاد عوقب بأخذ «عباءته»، أما أذا عاد للمرة الثالثة فيأمر به مجلس الشرع بالضرب والسجن عدة أيام...

أما القصر الملكي فهو مشيد على نمط عربي صرف، تقوم في وسطه أعمدة من الجبس الأبيض الناصع، ذات نقوش عربية تستوقف الأنظار بدقتها وجمالها، وهو يتألف من طابقين:

الطابق الأول وفيه قاعة المائدة الخاصة بضيوف الملك الأخصاء، وغرف أخرى خاصة بإطعام اللاجئين لساحته الملكية من فقراء البدو

والسابلة.

أما الطابق الأعلى ففيه عدة ردهات كبيرة وبهو يسع نحو ثلاثمائة شخص.

وقد خصص جناح للديوان الملكي يشمل مكتبة الملك الخاصة وديوان سمو الأمير سعود، وغرفاً خاصة لسكنى كبار موظفي القصر، وطبيب الملك الخاص.

ويلاصق بناء القصر بناء كبير خاص بالحرم والوصيفات والجواري والعبيد، وعددهم جميعاً لا يقل عن أربعمائة شخص بين ذكور وإناث...

أول حديث ملكي معنا:

ومما يجدر بي ذكره أنه بعد أن مثلت بين يدي جلالة الملك كان أول ما ابتدرني به من الحديث أنه هنأني بسلامة الوصول، وطفق يسألني باهتمام عما شاهدته أثناء سفري الطويل الشاق، فكان يبتسم ابتسامات الإعجاب كلما أجبته على سؤال بما لا يخرج عما أسلفت بيانه في مقالاتي السابقة، ومِن ثَمّ بدأ جلالته يحدثني قائلاً:

«ليس عندنا سوى دين واحد، ومذهب واحد، والجميع يؤدون الصلاة وراء إمام واحد، وهذا ما نشكر الله سبحانه وتعالى عليه، نعم إنّ المذاهب أربعة، ولكننا نعتقد أنّ مذهب الإمام ابن جنبل هو أقرب المذاهب للسنة النبوية السمحة، فلا نجد عندنا إلا ما يقوله المسلم لأخيه المسلم: السلام عليكم، وهم مرتبطون جميعاً بكلمة التوحيد، وعلى هذا الأساس يقوم مُلْكُنا والحمد لله، نحن لا نبغي المُلْكَ لذاته، فالمُلك لله الواحد القهار، فوالله وبالله، لو أعطينا ممالك الأرض طراً وأحسسنا أن ببعضها شركاً لبعدنا عنها بُعْدَ السماء عن الأرض، وليس يعنينا أن نقاتل الكفار، ولا نبغي إلا أن يهديهم الله سواء السبيل، فما دامو بعيدين عنا فليس ينالنا منهم شيء، ولا نحب أن نذهب إلى ديارهم، ولا أن نتشبه بهم، حتى ولا نرتدي شيئاً يلبسونه، إنّ المسلم الحقيقي هو الذي يتبع أصول دينه، ويرعى أمر الله، فمن شابَه الكفار أو تشبّه بهم فلا خير له في الدنيا ولا الحياة الآخرة».

تلك هي النفسية الدينية التي يدين بها الملك عبد العزيز، الذي يحكم اليوم أرض نجد والحجاز، ويقبض على ناصية الأمر فيها بيد من حديد...

... وأهل الرياض يشتغلون بجلب المتاجر من «الأحساء والكويت

والبحرين» يتبادلون وتلك البلاد مصنوعات نجد وماشيتها.

بل هنـاك مورد عظيم هـو إجـادة النجديين اسـتخراج اللؤلؤ والمرجان من قاع الخليج الفارسي.

أما الحالة الزراعية فليست بذات شأن يذكر حول الرياض، اللهم إلا بقدر حاجة السـكان، فيمكن أن توصـف الرياض ـ والحالة هذه ـ بأنها مركز تجاري ومقر حكم تلك البلاد لا أكثر ولا أقل.

ويتـداول الأهالي هنـاك بالجنيه الإنكليـزي والعثماني والروبية الهندية والريال الشوشـي، الذي أسـلفنا ذكره عن «حائل» وأجزاء هذا الريـال «الجديدة» بينما أجزاؤه في حائل «البشـالك» ويسـاوي الريال في الرياض ٤٣ «جديدة» وأجزاء الجديدة سـت قطع من البرونز يطلق عليها اسم (بيزة)...

بين زعماء قبائل نجد

وعلى ذكر ما روته بعض الصحف أثناء وجود سـعادة الطيب بك الهـزازي رئيس ديوان جلالة الملك ابن السـعود فـي مصر أخيراً عن وجود خلاف بين بعض زعماء قبائل نجد أمثال فيصل الدويش، زعيم قبيلة الارطاوية، وسلطان بن مجاد، زعيم قبيلة الغطغط، من جهة، وبين جلالة ابن السعود، من جهة أخرى، أقول:

إني سـمعت شيئاً في هذا الموضوع أثناء وجودي في «الرياض» ذلك أنهم يعزون وقوع ذلك الخلاف إلى حادث الاعتداء على المحمل في منـى، فقد قيـل، إنّ القتلى مـن النجديين كانوا مـن قبيلة فيصل الدويـش، وقد اعتبر بعض غلاة هذه القبيلـة أنّ تصرف جلالة الملك عبـد العزيز كان مهينـاً لهم، وكان من واجبه أن يثأر لهم، ولكن ما كان

أخيب رجـــاء الغلاة عندما علموا أن فيصلاً هـــذا ذهب إلى «الرياض» عقب وصول جلالة الملك بعد أن تعرف على الحقيقة من جلالته وأمّن عليها وانقضى بذلك كل قيل وقال.

أما سلطان بن مجاد فقد قيل: إنّ نزاعاً قام بينه وبين جلالة الملك على تطبيق بعض الأمور الشرعية، ولكنه بعد أن تبين الحقيقة قصد إلى «الرياض» وقابل جلالة الملك وخرج من لدنه شاكراً.

ولكـــن يظهر أنّ بعض دعاة الســـوء أرادوا بث دعايتهم في قلب نجد بعد أن فشـــلوا في الحجاز فلم يفلحـــوا، وهكذا عادت المياه إلى مجاريها وانقضى الأمر...

حياة النجديين الاجتماعية:

إنّ أهل نجد ـ ولا سيما سكان باديتها ـ يعدون الأرز طعاماً أساسياً لهم، بمثابة الخبز عند سائر الشعوب الأخرى، ولما كان هذا النوع من الطعام يستلزم تناوله بالملاعق، فإنّ النجديين لا يستعملون سوى قبضة أيديهم. أما سائر ألوان الطعام الناضجة الأخرى فلا يمكن أن تخلو من إضافة مسحوق «الكركم» عليها ـ ويسمونه البزار ـ ومع كثرة الألبان هناك فإنهم لا يعرفون الجبن، ولكنهم يصنعون شيئاً كثير الشبه به يسمونه «البقل» وطريقة صنعه أنهم يغلون اللبن حتى يجف، ومِن ثَمّ يضعونه في الهواء فيزداد جفافاً ويقطعونه قطعاً صغيرة بعد أن يضيفوا عليه قليلاً من الملح.

ومن عوائدهم أن لا يتناولوا البصل نيئاً، وحجتهم في ذلك عدم مضايقة المصلين برائحته.

وهم لا يهتمون بتصنيف الطعام ألواناً، ولا يهتمون بطهي الحلوى، تمشياً على ما كان عليه السلف الصالح.

ولا يوجد في نجد كلها سوى طبيب واحد، هو طبيب الملك الخاص، ومع أنه وحيد زمانه هناك فإنّ عمله قليل، والعلة في ذلك أنّ أسقام الناس تكاد تكون معدومة بسبب تقشفهم في المعيشة وفي تناول الأطعمة، ولأنّ يد الطبيعة هي التي تقوم مقام الطبيب هناك، يدلك على ذلك أنّ الوفيات هناك قليلة جداً ويندر أن يموت شخص من سن الأربعين أو الخمسين.

ولهذه المناسبة أذكر مرة أن جاء بدوي إلى طبيب الملك أثناء وجوده وطلب إليه أن يصف دواء لامرأته التي كانت تقيم في قلب البادية، وعلى مسير ثلاثة أيام، فاعتذر الطبيب عن وصف الدواء إلا إذا

عاين المريضة وشخّص داءها، فما كان من الأعرابي إلا أن هزأ بالطبيب والدواء وقال: لعلها تكون قد شُفيت فلا حاجة بنا إليك، وانصرف لسبيله.

وجاء بدوي آخر كان قد أُصيب برصاصة في جانب من كتفه شلت ساعده الأيمن، فلما أفهمه الطبيب أنّ إخراج الرصاصة يستدعي التخدير وإجراء عملية جراحية ضحك وقال: «لا والله، لن أموت إلا بريح الجنة ـ ويقصد بذلك برصاصة أخرى ـ لا أن يموت على مشرحة الطبيب».

ومن أعجب العجب أنّ أهل البادية الذين يقطعون القفار الشاسعة بلا دليل صناعي أو نحوه، بل بمراصد الشمس والقمر والنجوم وألوان رمال الأرض يستطيعون أن ينبئوك بأنّ أشخاصاً يتحدثون وهم على بعد نصف يوم على ظهور الإبل في الصحراء، ولعل ذلك يرجع إلى شدة حاسة السمع والبصر عندهم وصفاء أذهانهم وإلى قوة اتجاه الريح الذي ينقل نبرات الأصوات مع الأثير.

والمواقيت هناك بالحساب الهجري، وقد يريد بعضهم أن يذكر لك مثلاً العام الذي انقضى منذ عشر سنوات، فبدلاً من أن يقول لك بالرقم يذكر لك أهم وقائع ذلك العهد كأن يقول ـ سنة الأحساء أو سنة الحجاز ـ وهلمّ جرّاً، ولا يمكن أن يخطئ أحدهم في فهم عدد السنوات التي مضت على ذلك الحادث، أو أن يكون جاهلاً لأهم ما جرى من وقائع تلك السنة.

أما نطقهم العربي فلهجتهم تختلف عن لهجة عرب مصر، بل وعرب الحجاز أيضاً، فهم يبدلون الكاف تاء مشددة.

ومن عاداتهم أنهم قبلما يبدأ أحدهم بمحادثة آخر يدعو له بطول

العمر، وهناك اختصار لجملة أو لعدة جمل تقع في حرفي «س م» بفتح السين وسكون الميم، فعندما يقدم الساقي القهوة بدل أن يقول: «باسم الله» يختصرها بقوله: «سم» وإذا أراد أحدهم أن يصدع بأمر فبدل أن يقول سمعاً وطاعة، أجاب بكلمة: «سم» وإذا ناديت عليّاً وأراد أن يقول لك: إني سامع، هتف قائلاً «سم» وهلم جراً.

وللقراءة عند أكثر قرائهم نغمة مخصوصة يخيل إلى سامعها من غير النجديين أنه يستمع لـ: «أخنف» ولكنهم يفعلون ذلك مبالغة في الخشوع والتصوف ولا سيما عند قراءة كتاب الله العزيز.

ولإسدال اللحى عندهم شأن كبير، فهم يعدون من يحلق لحيته مخالفاً لسنة رسول الله ﷺ، وقد قصّ عليّ أحدهم وهو يعبث بلحيته اعتزازاً بها ـ بعد استئذان الدكتور محجوب ـ أنّ اثنين اختلفا في أمر إطالة اللحية من عدمها، وكان أحدهما أجردها، فذهبا إل بيت رسول الله ﷺ يحتكمان، فلما طرقا باب الدار أجابتهما السيدة عائشة بأنّ الرسول ﷺ غائب فذهبا، ثم عادا و طرقاه ثانياً وكان ﷺ لم يعد فأرادت السيدة عائشة أن تقسم بأنه لم يعد فقالت: «والذي فضّل الرجال باللحى، أنّ الرسول ليس موجوداً» وهكذا اكتفى ذو اللحية بهذا الحكم، وانتصر على زميله وانتهى الأمر.

قبائل بني صخر

أما قبائل بني صخر النازلة في حدود مملكة نجد من ناحية شرق الأردن فهي لا تزال على فطرتها لا تعرف من الإسلام إلا اسمه، وقلما تجد من يعرف أداء الصلاة بفروضها، ومع أنهم خاضعون لحكم جلالة الملك ابن السعود الآن، إلا أنهم لا يزالون في عزلتهم التي كانوا عليها قبل دخولهم في حكم جلالته، فلهم عوائدهم وتقاليدهم، ولهم أزياؤهم،

وأهم ما في أمرهم أنهم لا يأكلون القمح طحيناً بل يسلقونه على مثال (البليلة) المعروفة في مصر، ويعتقد بنو صخر أنهم مصريون أصلاً وبنو عمومة للمصريين، وقد كان جدهم الأول مصرياً وقد كان لهذا الاعتقاد أثره معي، فقد استقبلني بعض مشايخ تلك القبيلة بأجلى مراسم التأهيل والترحيب وشرعوا يقيمون الحفلات كأنما جاءهم قريب جليل القدر من ضفاف النيل.

وقد شهدت حفلة عرس، وقد جيء بقطعة من خشب العود وأمسك بإحدى طرفيه كلٌّ من الزوج و والد الزوجة، ومِن ثَمّ حاط بهما الحاضرون، وهنا قال والد الزوجة: «وحياة العود والرّب المعبود جوزت ابنتي» فيرد عليه الزوج قائلاً: «تجوزت ابنتك» وعلى أثر ذلك

تُنحر الذبائح وتقام المآدب وينتهي الأمر.

وإلى هنا نكون قد انتهينا من وصف بلاد نجد، طرقها ومسالكها، عوائدها وتقاليدها، ودينها وطبائع أهلها من حضر و بدو.

وقد رأينا قبل مبارحتنا الرياض ـ عاصمة نجد ـ أن نحظى بمقابلة جلالة الملك ابن السعود، كي نحصل منه على حديث مستفيض في شؤون بلاده العامة من سياسية واجتماعية، ونستطلع رأيه في شأن الخلافة الإسلامية، وما جرى في حادث الاعتداء على المحمل المصري، والنظام الجديد الذي وضعته حكومته لحكم الحجاز بعد فتحه، ورأيه في توظيف المصريين في مناصب دولته، وقد أبدى جلالته عظيم ارتياحه إلى محادثتنا فيما تقدم.

وإلى القراء هذا الحديث:

حديث ملكي هام

بدأ جلالته حديثه معنا قائلاً:

«أرجو أن لا تكونوا قد تأثرتم بشيء مما بدا لكم من خشونة بعض سكان البادية، وجفاء طباعها، أو شدة تعصبهم للدين، فذلك أمر يرجع إلى الفطرة التي نشؤوا عليها، على أني شخصياً وكبار أقطاب دولتي لسنا على شيء من هذا، يدلك على هذا أنّ مندوبي الدول ذات الشأن بنا يدخلون معنا في مفاوضات طويلة فلا نشتد وإياهم، أو نسلك معهم مسلكاً ينأى بهم عنا، بخلاف ما شاهدتموه أنتم شخصياً إذا طوحت بكم أحاديث كهذه مع قبائل البدو الذين هم على الفطرة، وإني أحمد الله أنّ شعباً كهذا يدين بالولاء لمليكه، ويرفع كلمته عند الشدة، ويبذل مهجه عند الضرورة، ويقنع بالقليل من أود الحياة، ولعل أخبار حربنا مع الشريفين وما أبداه شعبنا من بسالة وإقدام وتفانٍ في

رفع راية مليكه أكبر شاهد على ما أقول».

سألنا جلالته: وهل تتنازلون جلالتكم ببيان الأسباب المباشرة لقيام الحرب الحجازية الأخيرة؟

فأجاب: «نعم، وإني أقسم لك بأني ما كنت أبغي الحرب معهم، لولا أنّ الشريف حسيناً هو الذي ألجأنا إلى قتاله بما ارتكبته عصابته في السنوات الأخيرة من سوء معاملة حجاج بيت الله الحرام، ليس بالنسبة للنجديين وحدهم، بل وسواهم من أمم الإسلام الأخرى، ولقد صبرنا عليهم صبراً جميلاً وفوضنا الأمر فيهم لله تعالى، فما ازدادوا إلا بغياً وعدواناً، وأنذرناهم بداءة بدء سوء المصير، ولكنهم تمادوا عتواً، وأعمل رجالهم صلفاً وإرهاقاً مما لا قِبَل لنا على المزيد من الصبر عليه، فاضطررنا في نهاية الأمر إلى تسيير جيشنا إلى الحجاز، وإذا سمعت مني كلمة: جيش، فليس ذلك الجيش إلا أولئك البدو البواسل الذين تشاهدهم حولك هنا وهناك، فعلنا ذلك وكان يقيننا أننا نطهر أرض الحجاز من أهل البغي، ونؤمّن طريق الحجاج، ونحمي أرواح المسلمين، ليس في نيتنا أن نتملك الحجاز لذاته، أو نزيد ملكنا بسطة وسلطاناً، فقد كنا نعلم أن لأهل الحجاز عقائد وتقاليد تخالف عقائدنا، وهناك عصابات القتل والنهب والإخلال بالأمن من الصعب قطع دابرها أو تحويل عقائدهم وأحكامهم إلى مثل الحال في بلادنا، نجد، وكنا نعلم أكثر من ذلك أنّ امتلاك الحجاز ربما يسبب لنا متاعب، ويفتح الباب لتدخل بعض الدول الأوربية معنا، ولكنا خضنا الحرب مع ذلك تحت تأثير غرضنا الأسمى، الذي أسلفت لك بيانه، وهكذا كُتب لنا النصر بعد حرب لم تدم طويلاً بسبب تذمر الحجازيين من سوء حكم الشريف، حتى لقد كان رجالنا لا يلقون في أكثر المواقع الحربية

مقاومة تذكر، وكنا كلما دخلنا مكاناً أهلّ بنا أهله كافة، بل ما كدنا نطرد الشـريف وعصبته ونقبض على ناصية الأمور في الحجاز ونعلن لأهلها عدم رغبتنا في حكم الحجـاز، حتى اجتمع زعماؤه وأصحاب الكلمة فيـه وأجمعوا رأيهم على مبايعتنا المُلْـك فيه، وهكذا لم نر بداً من أن نقبل هذه البيعة، وأن نقبل حكم الحجاز بدين الله وسنة نبيه الكريم».

وسألنا جلالته: وماذا أبدلتم من نظام الحكم في الحجاز؟

فأجاب جلالته: «إنّ النظام الأساسـي لحكومته لم يتغير، فأبقينا كبـار الموظفين الذيـن عهدنا فيهم الصدق والإخـلاص لنا، بل الذين كانوا في مقدمة الذين بايعونا المُلْكَ وكل ما أحدثناه هو إبدال القوانين التي شرعها لهم الشـريف باتباع حكم الشرع، كما هو الحال في نجد، وقد اسـتقبل الناس ما شـرعناه لهم بمزيد الابتهاج والرضى، وقد كان لذلـك أثره الفعال في سـرعة تبدل الحال واسـتتباب الأمن وقطع دابر الفوضى من أرض الحجاز، كما سوف ترى عندما تزورها».

وسألنا جلالته: قلتم لنا: إنه لم يكن بد من تدخل بعض الدول في شأن من يحكم الحجاز، فماذا تقصدون جلالتكم بتلك الدول؟

فأجابنا: «تعلمون أنّ أكثر دول أوربا وفي مقدمتهم إنجلترا تحكم أمماً إسلامية، فكان من البديهي أنها تهتم بشؤون حجاجها.

مثل ذلك أنّ الأزهر الشـريف فيه رواق لكل دولة، ومن حقها أن تتدخل مع الحكومة المصرية في كل ما يمس شـؤون شيوخه وطلابه، فالمسألة في حكم الحجاز من حيث تدخل الدول لا تتعدى هذا الشأن فقط، وإذا جاز لي أن أخص بعض الدول بالثناء فإنما هي إنجلترا التي برهنت في أكثر من موقف على أنها لا تبغي بنا تحكماً فيما هو خارج عن حدودها، فما دام رعاياها من الحجاج في أمن واطمئنان، وأسـباب

رعاية صحتهم متوفرة بينهم، فهي لا تحرك شأناً، قلّ أو عَظُمَ».

سألنا جلالته: وما رأيكم في الخلافة الإسلامية ولماذا لا ترغبون فيها؟

فأجابني مبتسماً: «إني أعتذر لك عن الخوض في هذا الشأن الخطير لأسباب أراها لا تتفق مع تمسك أهل بلادنا بنصوص حكم الشرع، ولا أرى من اللياقة وحسن المجاملة أن أنبسط معك في هذا الموضوع».

قلنا لجلالته: وما رأيكم في توظيف أذكياء المصريين في وظائف دولتكم؟

فأجابنا جلالته قائلاً: «إنّ حبي وتقديري لأبناء مصر فوق ما تتصور أنت، فهذا مستشاري الأمين وساعدي الأيمن فضيلة الشيخ حافظ وهبه، له عندي المقام الأسمى وعظيم التقدير، وإني أرحب بمن يرغب في تولي مناصب البلاد من أبناء مصر، لولا أني أعرف بأنّ مالية الدولة لاتتفق، وما يستحقه أبناء هذا البلد الغني الوفير الخيرات، وإني أرجو الله أن يتسع نطاق العمران في بلادي على مدى الأيام، وتزيد موارد دولتي فيكون المجال فسيحاً أمام هؤلاء الإخوان الذين أتمنى وجود أكثر عدد منهم بين موظفي حكومتي».

قلنا لجلالته: وما رأيكم في حادث المحمل المصري؟

فأطرق جلالته قليلاً ثم قال:

«ليت تلك الساعة العصيبة التي وقع فيها هذا الحادث المنكود لم تكن مسطورة في حساب الدهر، فقد جرها أناس لا ينظرون إلى أبعد من أنوفهم، وهم في ساعة غليان، أحمد الله الذي كتب لحامية المحمل المصري السلامة ولم يحملنا وزر ما جرى أو ما كان أن يكون، فمصر

هـي أقرب دول الإسـلام جواراً لنا، وجلالة مليكهـا فؤاد الأول له في فؤادنا أجل مكان، وإني أؤكد لك بأنه على توالي الأيام سـيدرك أمثال الذيـن أثاروا هذا الحادث برعونتهم أن لا شـيء أحب إليهم من تمتع الأراضي المقدسة بأعظم أنواع السلام والطمأنينة».

وكان هذا خاتمة حديثنا مع جلالته وبعد أن شكرنا مالقينا في بلاده من ضروب الحفاوة والإكرام، وماخصنا به جلالته و سـائر أفراد أسرته الكريمة من الرعاية والعطف، استأذناه في السفر إلى مكة المكرمة.

إلى أم القرى[1]

لا نأتـي على نهاية هذا المقال حتى نكـون قد انتهينا بالقراء من

---

١ . لم يوفق صاحب الرحلة لزيارة المدينة المنورة في هذا المجال، ولم يكتب حولها شيئاً وإن لم يكتب حول الأماكن المقدسة في مكة المكرمة والمشاعر تفصيلاً.

وصف تلك الرحلة، فيكون مسك الختام، ولقد أسلفنا القول في مقالنا السالف بأننا سنقتصر هذا المقال على وصف رحلتنا في أرض الحجاز بعد أن قضينا نيفاً وشهراً في عاصمة نجد، وأكثر من شهرين في التنقل بين بلاد نجد، وكان في نيتنا أن نقوم برحلة طويلة نستعرض فيها سائر مدن الحجاز، لولا أن داهمنا القيظ بخيله ورَجِلِه، فقد كانت درجة الحرارة في شهر مارس أشد منها في شهر يوليو بالقاهرة، حيث نصطليها الآن، وعلى ذلك لم نر بُداً من الاقتصار على زيارة مكة المكرمة، وفي الواقع فإنها كل شيء في الحجاز، بل هي الحجاز كله، فأم القرى هي مظهر حياة الحجاز والحجازيين، على أنها في الأثناء الأخيرة وبعد أن حكمها الوهابيون قد تطورت تطوراً يدفع بالباحث الرحّالة إلى استطلاع قديمها وجديدها.

تركنا «الرياض» وكان من حسن الحظ أن رافقنا في رحلتنا منها إلى أم القرى سعادة الطيب بك الهزازي، رئيس ديوان جلالة الملك ابن السعود، يحمل الهدية السعودية إلى صاحب السمو الأمير فاروق ولي عهد الدولة المصرية، وهي الجياد الأربعة التي وصلت إلى مصر منذ شهرين، فقطعنا ستة أيام على ظهور الإبل لم نشهد في طريقنا أثراً لبلد إلى أن صادفنا قرية تدعى: «الشعرا» هي بمثابة محط لرحال القوافل، وتزويد رجالها بما يحتاجون إليه من مؤونة وماء، لهذا السبب ترى أسعار الحاجيات فيها مرتفعة جداً، وتركنا هذه القرية وواصلنا السير بين وديان وحزون، فتارة نصعد إلى هضاب عالية وقمم جبال شامخة، ثم ننخفض إلى سفوح بعيدة الغور، وعرة المسالك، حتى إذا احتجنا إلى الماء لم نجد حاجتنا منه إلا من آبار بعضها ذات ماء آسن أو ملح.

وهكـذا قطعنا عشـرة أيام على هـذه الحال إلـى أن بلغنا بقعة يسـمونها: «السيل» وقد سـميت كذلك لوقوفها في سفح سلسلة جبال تنحدر من قممها مياه الأمطار فتكوّن شبه بحيرات صغيرة.

وفي هذه البقعة يتحتم على قاصدي أم القرى أن يُحرِموا استعداداً لدخول المدينة المقدسـة، فخلعنا ملابسـنا العادية، وأحرمنا وواصلنا السـير، حتى إذا بانت أمام أنظارنا قباب مكة ومبانيها الشاهقة هتفنا مع رجال القافلة قائلين: «لبيك اللهم لبيك لا شريك لك، السعد والخير بين يديك».

وفي مسـاء ذلك اليوم بلغنا أبواب مكة، فكان أول ما قمنا به أن طفنا حول البيت الكريم وسـعينا بين الصفا والمروة سبع مرات، وهذا فرض واجب على كل داخل مكة...

في مكة المكرمة

ومما لاحظناه ـ وكان آنئذ شـهر رمضـان ـ أنّ أكثـر المتاجر والحوانيت مغلقة، وحركة المارة في الشوارع خفيفة، وهي حالة تختلف اختلافاً كلياً عن مثلها في سـائر المدن الإسـلامية الأخرى، وقد بحثنا عن السّر في ذلك، فعرفنا أنّ سكان مكة ينقطعون بكلياتهم وجزئياتهم خلال شهر الصوم للعبادة والتقديس ونسيان متاع الدنيا ومشاغلها.

ومكـة مدينة كبرى بحـق، أكثر مبانيها مشـيدة بالأحجار، ذات وجهـات بارزة بشـكل «مشـربيات» بعضها على نمـط عربي بحت، والبعض الآخر يشـبه المباني المصرية التي شيدت خلال نصف القرن الماضي، وهي كثيرة الأسـواق، يجد فيها المسـافر كل ما تشتهيه نفسه من الحاجيات من ملبس ومأكل وكماليات، ولا سـيما بعض الزخارف التي يجيدها صناع أصلهم من الهند والعراق والشـام وبعض أهل مكة

أنفسهم، فأسواق الحرير مثلاً ـ مع أنّ دودة القز لا تعيش في الحجاز وقزها يُجلب من دمشق الشام وبيروت ـ يشتغلون بصنعها، حتى إذا عرضت مصنوعات مكة الحريرية على طلابها ميزوها وأيقنوا أنها من صنع مكة.

على أنّ سائر السلع والبضائع مرتفعة الأسعار حتى الفاكهة وبعض الخضروات، بسبب استجلابها من الخارج وضرب الرسوم الجمركية فادحة عليها.

أما اللحم والسمن فكثير جداً وأثمانه رخيصة عنها في مصر.

أما الحالة الصحية بسبب قدم المدينة وضيق شوارعها وعدم تنسيقها وشدة حرها، وعدم اعتناء الحكومات البائدة بتوفير أسباب الصحة العامة فليست حسنة، ولكن الحكومة الحاضرة شرعت في استجلاب المرشحات للمياه وتوسيع بعض الشوارع وإضاءتها، كل ذلك يحمل على الاعتقاد بحسن الحال في مستقبل الأيام.

ويبلغ تعداد سكان مكة والقرى المجاورة لها زهاء مائة ألف نسمة، وأكثرهم طوال القامة يضرب لونهم للسمرة مع نحافة غالبة في الأجسام على أنهم يتمتعون بصحة جيدة.

وظاهر أنّ اختلاط العنصرين التركي والمصري بهؤلاء السكان أحدث تغييراً في لهجة حديثهم ودرجة تفكيرهم وذهنياتهم، وهناك عدد غير قليل من الأغنياء الموسرين الذين أثروا من تبادل المتاجر والأرباح الطائلة التي دخلت عليهم في أوقات الحج، يجد الزائر المصري في منازلهم من أدوات الترف وجمال التنسيق ما يجده في بيوت بعض كبراء مصر، وتناول القهوة هناك شائع على الطريقتين المصرية والتركية، إلا أنّ شرب الشاي هو الأكثر شيوعاً.

أمـا عقائدهم الدينية فهم أقل تعصبـاً للدين من أهل نجد، وقد لاحظت أنّ بعضهم مع إحـلال الحكم الوهابي وتطبيقه في الحجاز لا يزال يسـتبيح لنفسه بعض المحرمات الوهابية، مثال ذلك أنّ بعضهم لا يزال علـى عادته في تدخين الدخان والتمباك، إلا أنه لا يجسـر على تدخينه جهاراً، وهناك بعض أصحاب القهوات ينصبون أسـتاراً داخل محلاتهم يستتر وراءها مدخنو النارجيلة والسجائر.

وللماء هناك شأن يذكر ولا سيما في موسم الحج، فيكثر استهلاك الماء من الآبار، فتقل مياهها بطبيعة الحال، ولاسـيما في الطريق ما بين مكة وجبل عرفات، وكان مـن أهم ما اتجهت إليه أنظار جلالة الملك ابن السعود بعد فتحه الحجاز هو العمل على حلّ هذه المشكلة الهامة، فأمـر ببناء أحواض تخزن فيها المياه بكثرة قبل تدفق سـيول الحجاج وبذلك يجدون حاجتهم منها بسهولة وبثمن مقبول.

والماء هنـاك نوعان: عذب وملح، فالعذب يسـتخرج من عين تسير في قناة من الحجر تحت الأرض وهي المعروفة بـ: «عين زبيدة» ويبتدئ أولها قبل منطقة السيل، التي أسلفنا ذكرها.

و يـروى أنّ الملكـة زبيـدة ـ زوجة هارون الرشـيد ـ هي التي أنشـأت هذه القناة، فسـهّلت على أهل مكة سبيل الحصول على المياه العذبة.

ولهـذه العين عدة فتحات يزدحم عندها السـقاة لأخذ حاجتهم

منها، ويحدثون ضجيجاً يصم الآذان.

أما المياه الملحة فتستخرج من آبار ارتوازية، وهي ليست ملحة جداً، ولكن الحاجة تدفع بعض الناس إلى استعمالها، ومياه «بئر زمزم» الكائنة وسط الحرم الشريف من هذا النوع ولا يتناولها الناس إلا على سبيل البركة.

ويعتمد أهل الحجاز في معيشتهم على موسم الحج الذي يدوم حوالي ثلاثة شهور، فالمباني تُؤجر لسكنى الحجاج بأجور مرتفعة، والتجار والصناع يعرضون ما يدخرونه من البضائع والمصنوعات على الحجاج.

وهناك طائفة الصيارف ينتشرون في زمن الحج، ويربحون أرباحاً طائلة من تبادل أنواع العملة المختلفة التي تحملها الحجاج.

وعلى وجه العموم فإنّ أهل مكة يعتمدون على قوام معيشتهم خلال بقية أيام العام على ما يجنونه من أباح مواسم الحج.

ومما يلاحظه زوار مكة كثرة المستجدين من السودانيين الذين يسمونهم «التكارنة»؛ وهؤلاء ممن تضيق بهم سبل العيش فينزحون إلى جوار الحرم الشريف رجاء العيش مما يجود به أهل الخير، وقد شهدت نفراً من أولئك السودانيين بحالة تفتت الأكباد، ولست أدري ما هو نصيبهم من حسنات حكومتهم الغنية في ديارهم...؟!

...ولما كان جلالة الملك عبد العزيز بحكم اضطراره لمباشرة شؤون نجد على الأخص، ولأنه في الواقع لا يريد أن يحصر همّه في إدارة شؤون الحجاز، فقد اقتضت حكمته أن يولي سموّ الأمير فيصل، ثاني أنجاله، بمثابة قائمقام له في إدارة حكم الحجاز، بعد ما آنس من تعلق الحجازيين بذاته وميل الشعب الحجازي إلى تسيير شؤون الحكم

على مقتضى نظام الشورى.

وقد أصاب في ذلك كل الإصابة، فقد أظهر هذا الأمير الصغير السن حكمة الشيوخ ولياقة الحكماء، فجمع القلوب حوله، حتى إنَ ممثلي الدول الأجنبية الذين خالطوه بحكم مهامهم الرسمية، شهدوا له بحدة الذكاء، وبعد النظر، و رقّة الجانب، وكانت رحلته في عواصم أوربا في خلال الصيف الفائت مما أيد حسن ظن هؤلاء وأولئك فيه، فنشر دعاية العرب بين أمم الغرب من طريق غير مباشر، وعاد يحمل إلى قومه وبلاده ثقة الأمم المتمدنية، بعد أن كان الاعتقاد السائد بينهم أنَ بلاد العرب يحكمها أناس بعيدون عن المدنية، مجردون عن صفات التهذيب الإنساني.

الحج ومراسيمه

ومما يذكر حيال الحج ومراسيمه أنَ جماعات المطوفين كانوا إلى ما قبل حكم الملك ابن السعود في الحجاز أشبه بجماعات التراجمة الذين يصاحبون السياح الأجانب في مصر، فيمثلون معهم شتى ضروب القبائح، ويرسمون أمام أنظارهم أشنع صنوف الموبقات، ويصورون لهم الأمة المصرية تصويراً ذميماً، مما حمل الصحافة المصرية في الأيام الأخيرة أن تطلب من الحكومة المصرية الوقوف في وجههم ومصادرتهم وسن اللوائح لإيقافهم عند حدهم محافظة على كرامة مصر وسمعتها.

وقد كان أولئك المطوفون يتلقفون الحجاج، ولا سيما بسطاؤهم، فيبتزون أموالهم ويلقنونهم أقوالاً خرافية منافية للشرع والعقل معاً، مثال ذلك أن يمسك أحدهم بحاج ساذج ويلقنه العبارة التالية، بصوت خافت على باب الحرم الشريف، كأنما هو يُنزل عليه آية من السماء!:

«أللهم إني نويت إعطاء مطوفي مبلغ كذا من المال بنية الله ورسوله»!

فإذا ما نطق الحاج بهذه الكلمات حسب أنها سُجلت عليه في لوح مسطور لا سبيل إلى نقضه بحال حتى إذا فرغ من طوافه أدّى ما تعهد به لذلك المطوف المحتال بغير إمهال، وهكذا دواليك.

وأكثر منه مما كان يجري في السّر والعلانية، وقد يكون بعضه مما يغضب الله ويندي له وجه الآداب.

أما الآن فقد قضى نظام الحكم الجديد على تلك المظالم والبدع السخيفة، ووُضع أولئك المطوفون تحت مراقبة شديدة، فإن أقل شكاة يرفعها أحد الحجاج ضد أحدهم تكون كافية لإبعاده عن حظيرة المطوفين.

أما مشكلة الأمن العام التي كانت هي في الواقع أمّ المشكلات، ورأس كل الخطايا، مما كان يحسب له المسلمون الراغبون في حج بيت الله الحرام أكبر حساب، فقد كانت في طليعة المشكلات التي استطاعت الحكومة الجديدة حلها على أهون سبيل، فمنذ حلّ حكم الشرع محلّ القانون المدني والجنائي، وأدرك دعاة الشر والإجرام ما هو حكم الشرع حيالهم، نزعوا عنهم ثيابهم وغسلوا أيديهم من أوزار الماضي، ووضعوا أنفسهم رهن ما يقضي به حكم الشرع، إذا ما حدثتهم نفوسهم بمخالفة ما تقضي به هاتيك الأحكام، فكان أهم ما انقطع دابره تلك الفعلة المشؤومة التى كان يلجأ إليها أشرار البدو الحجازيين ولا سيما رجال قبيلة عتيبة وبني هذيل وحرب، الذين كانوا يستدينون الأموال من بعضهم بعضاً على أن يقوموا بسدادها من أسلاب الحجاج وما يغنمونه من أموالهم، فقد عمد الملك عبد العزيز فوق اعتماده على إنفاذ حكم الشرع إلى بسط يده بالإحسان إلى فقراء هؤلاء البدو،

وبذلك أمنت القوافل التجارية على ما تحمله من بضائع وسلع مهما بلغت قيمتها، وأمن الحجاج كذلك على أرواحهم ومتاعهم، يدلك على ذلك أنّ رجال المحمل المصري عندما سافروا في العام الماضي أثبت سعادة أمير الحج في تقريره لولاة الأمور أنّ عصابات البدو التي اعتادت غزو المحمل ورجاله لم يبق لها أثر في الحجاز، وفي هذا العام سافر الحجاج المصريون وعادوا دون أن يصيبهم أقل اعتداء، حتى قال لنا أحد الحجاج: «إن امرأة مصرية تستطيع أن تبرح مصر بمفردها وتقصد إلى قلب الحجاز وتقوم بفريضة الحج ثم تعود دون أن يصيبها أقل مكدر».

والظاهر أنّ استقرار حالة الأمن حملت أحد أعضاء مجلس الشيوخ المصري على التصريح رسميّاً بأنّ المحمل وحرسه أصبح بدعة يجب إبطالها، وقد تألفت لجنة خاصة للنظر في هذه المسألة.

على أنّ هناك رأياً آخر هو أنه إذا استقر الرأي في نهاية الأمر على منع سفر المحمل فليس من العدل أن يُحرم فقراء الحجاز من المبرات وخيرات الواقفين التي اعتادت مصر إرسالها إلى الحجاز من قديم الزمان، ولعل ذوي النظر البعيد من ولاة الشأن في مصر سيراعون هذه النظرية بما تستحقها من العناية والاهتمام.

مصر في الحجاز

إنّ مصر لتتيه فخراً بين أمم الإسلام التي تحج الحجاز بوجود

التكية المصرية والمستشفى المصري التي يخفق عليهما العلم المصري على الدوام بصورة تشعر العالم الإسلامي أنّ مصر ذات الأثر الخالد والمجد التالد في المكرمات السباقة إلى رعاية حقوق الإنسان لها ذلك الأثر الناطق على مقربة من أشرف مكان يهتدي إليه المسلمون من مشارق الأرض ومغاربها.

فلقد هزني الفخر بحق عندما زرت دار التكية المصرية التي يديرها مواطننا الفاضل إبراهيم صبحي نجاتي أفندي، وألفيتها لا تختلف عن إحدى إدارات الحكومة المصرية بالقاهرة نظاماً، ورجالها يقومون بتوزيع الطعام من خبز ولحم وأرز على جيش من البؤساء والمعوزين صباح كل يوم، فتسمع أصوات ذلك الجيش وهم ينصرفون تتصاعد بالدعاء لمصر وجلالة مليكها.

وماذا أقول في ذلك المستشفى الذي يضم بين جدرانه مئات المرضى بمختلف الأسقام والأدواء، وهم يُعالَجون بمزيد العناية والرفق، وتُصرف لهم الأدوية والعقاقير والأطعمة الصحية بسخاء عظيم؛ أضف إلى عناية حضرة الدكتور البارع عبد الهادي بك خليل الذي يواسي المرضى برقته ويحنو عليهم بعلمه ورعايته؟!

وعندي أنّ وجود مثل هذين المعهدين الإنسانيين لخير من ألف تمثيل سياسي لا طائل منه.

في جدة

قد انتهينا من رحلتنا واستوعبنا ما يهم قومنا وبلادنا الاطلاع عليه واعتزمنا مبارحة مكة فودعنا سمو الأمير فيصل الذي كان على الدوام لا يكف عن التلطف بنا والاستفسار عنا؛ ومن ثم استقلينا سيارة سارت بنا نحو ثلاث ساعات حتى بلغنا «جدة» بعد أن مررنا بقرية صغيرة تقع

في متوسط الطريق تدعى: «بحرة» وهي نقطة تتموّن منها السيارات بحاجتها ومحط لرحال قوافل الحجاج الذين يستريحون فيها.

وثغر «جدة» من أهم مواني الحجاز على ساحل البحر الأحمر وبسبب مركزها الطبيعي يعتبر أهلها أغنى من أهل مكة ومن سائر البلاد العربية في شبه الجزيرة، وذلك لاتصالها بالأسواق الخارجية، ومرور البواخر القادمة من الهند إلى مصر وغيرها، ويحكم هذا الثغر حاكم يلقب بـ: «القائمقام» يعاونه رجال الشرطة.

وتوجد في جدة دور القنصليات وبعض المصارف المالية، وتقع القنصلية المصرية في بناء فخم، ولا يمر بجدة مصري حتي يلقي من عناية صاحب العزة أمين بك توفيق قنصل مصر ما يطلق لسانه بالشكر والثناء، ولا يوجد في جدة إلا عدد من الأوربيين الذين يعدون بمثابة «قومسيونجية» لاستجلاب البضائع من البلاد الخارجية وتوزيعها على التجار المحليين الذين يوزعون سلعهم في داخل البلاد.

وجمرك جدة يعتبر ركناً مهماً من موارد الثروة للحكومة الحجازية، فإنّ ما يجبيه من الرسوم الجمركية على الصادرات والواردات مع فداحتها يكون دخلاً عظيماً لا يستهان به.

وطقس جدة لا يعد ألطف كثيراً منه عن داخلية البلاد مع كونه على ساحل البحر الأحمر، فالحرّ هناك شديد، ولعلّ أبخرة البحر هي التي تفسد من جودة الهواء الخالص، فليس يغبط أهل جدة وجودهم على الشاطئ اللهم سوى اغتباطهم بما يدخل إليهم من الأرباح وتيسير أسباب الرزق لهم.

* * *

وإلى هنا تكون قد انتهت رحلتنا، وحسبنا أننا كما قدمنا للقراء

منها سوى إيراد الحقائق من الوجهتين العمرانية والاجتماعية التي لم يسبق لسوانا معرفته والبحث فيه حتى الآن.

الخاتمة

هكذا تطورت الحال في مملكتي نجد والحجاز وتم لهما ذلك الاندماج المتين، فخرجت «نجد» من عزلتها الطويلة عن بقية الشعوب الإسلامية المتحضرة،... ومما لا ريب فيه أنّ بلاداً كهذه وقد خرجت من عزلتها ووضعت يدها بأيدي جاراتها من البلاد المتحضرة سيكون لها حظها من الحضارة بحكم المجاراة على مرّ الأيام.

ومن يعلم ما كانت عليه الحجاز قبل أن يحكمها جلالة الملك عبد العزيز آل سعود كيف كانت الفوضى ضاربة أطنابها وأموال الناس وأرواحهم في خطر دائم من اعتداءات البدو الحجازيين واستخفافهم بالنظام والحكومة القائمة بالأمر، وهذا ركب المحمل المصري كان على الدوام هدفاً لاعتداء المعتدين، وفتك الفاتكين، فبات الحجاج يسافرون أفراداً وجماعات حتى دون أن يرافقهم حرس المحمل، ثم يعودون دون أن يصيبهم أقل أذى، ولم يكن هذا شأن حجاج مصر وحدهم بل هي الحال مع سائر المسلمين الذين يحجون بيت الله الحرام.

وإذا كان كل شيء في أوله صعباً فلا عبرة ألبتة ببعض ما قام من وجوه الخلاف في الرأي بين الحكومتين المصرية والحجازية بشأن المحمل المصري، وقد يأتي وقت تضع فيه حكومتا البلدين اتفاقاً متيناً يرتب شؤون الحج ومراسمه في المستقبل، وطبقاً للتطورات الحادثة بين الأمم والآراء العامة.

وكذلك فإذا كان بعض الذين لا يحلو لهم الصيد إلا في الماء العكر قد زين إليهم أن يثيروا العواصف ويشيعوا الأكاذيب عن حكم

الحجـــاز وآراء الوهابيين الدينية قصد تنفير الأمم الإســـلامية من حكم جلالـــة الملك عبدالعزيز، فحســـبنا أنّ مثل هذا وأكثر منه يقع عادة بين سائر الأمم، ولا سيما عقب الفتوح والانقلابات السياسية...

وإنا لنســـأل الحق جلّت قدرته أن يكتب للإســـلام والمســـلمين اتحـــاد الكلمة ورفع راية الإســـلام بين الأنـــام، وأن يوطد دعائم الحب والـــولاء بين ملوك الناطقين بالضاد وأمرائهـــم، وأن يوفقهم إلى ما فيه مرضاة الله، ورفع شأن المؤمنين، بمنه وكرمه.

«انتهى»